

ديكارت

عَوَّل ديكارت على التوسل بالشك منهجاً لبناء فلسفة على أسس جديدة سليمة ودعامات راسخة قوية . فهو يرى أننا تلقينا أغلب الآراء المركوزة في نفوسنا من حواسنا وعن معلمينا فلم تكن وليدة تأمل خالص وثمره تفكير سليم .

ينبغي إذن أن نتخلى عن هذه الآراء . وإن حواسنا اتخذتنا أحياناً ، وما اتخذتنا مرة لا يؤمن جانبه إذ قد يخذلنا مراراً ، فينبغي أن نثق بشهادة الحواس كلها . ومن الناس من يضل السبيل في التفكير فيخطئ في أبسط المبادئ الهندسية ، فلننح جانباً أيضاً الحقائق الرياضية . ويواصل ديكارت اصطناع الشك فيقول : من يدريني فقد يكون هنالك شيطان ماكر يبلغ من المهارة وسعة الحيلة حداً يتمكن معه من إضلالى ، فخير لى إذن أن أعلق حكمى على الأشياء جميعاً .

أنا أشك إذن فى كل شىء ، ولم يفلت من شكى أبسط الحقائق الرياضية والمعانى العقلية . فالتشكك هو اللحظة الأولى فى فلسفة ديكارت ولكنها لحظة لا تدمر بل سرعان ما تفضى بنا إلى يقين واضح . فهما بلغنى الشك فلن أستطيع أن أشك فى أنى أشك . فأنا الذى أشك أفكر ، وما دمت أفكر فأنا موجود . أنا أفكر إذن فأنا موجود

le pense donc je suis «Cogito Ergo Sum» .

هذه الحقيقة الأولى لا يداخلى فيها أدنى شك . ولكن ما الذى

يجعلنى على ثقة من حقيقة هذه القضية، أنا أفكر إذن فأنا موجود ؟ إن ما أعرفه في وضوح وتميز هو أنني لسكى أفكر فلا بد أنى موجود . ومن ثم يمكننى أن أتخذ كقاعدة أن الأشياء التى أتصورها فى غاية من الوضوح والتميز هى أشياء حقيقية على التمام . فالوضوح والتميز فى الأفكار هما معيار حقيقتها . وإذا يبدأ ديكارت من هذا المبدأ يبرهن على وجود الله ، وبعد أن يصل إلى هذا البرهان يعود فيقلب الترتيب الذى تنتظم به المبادئ فيجعل الله ضامناً لجميع الحقائق، وعلى ذلك فليسكون الله موجوداً فإن ما نتصوره فى وضوح وتميز هو أمر حقيقى .

وأياً ما كان من اعتراض على شك ديكارت ومهما قيل فى شأنه من أنه قد يخرج فيه عن قصده أراد أم لم يرد ، فإننا نلاحظ أن شك ديكارت شك صورى ، شك مصطنع ، وليس وليد أزمة نفسية أو استسلاماً ليائس من الوصول إلى أركان ثابتة للمعرفة ، وإنما هو منهج يتوسل به صاحبه للوصول إلى اليقين وقد أقدم على اختياره بعد روية وإنعام نظر ، فهو من ثم أبعد ما يكون عن الشك المطلق الذى عرضنا إليه من قبل ، شك الارتيايين واللاأدريين . إن شك ديكارت للبناء لا الهدم وهو يعد مدخلاً لا بد منه لفلسفته العقلية .

واليقين الأول الذى تصل إليه هذه الفلسفة وليد الحدس *Intuition* وليس نتيجة قياس أو ثمرة استدلال . والوجود الذى ندركه فى الكوجيتو الديكارتى (أنا أفكر إذن فأنا موجود) ليس وجود الجسم وإنما هو وجود الفكر ، فعنى أنى أفكر هو أنى أشك وأتعقل وأحس وأتخيل ، هذه الظواهر النفسية وما على غرارها تفيد الفكر لأننا ندركها إدراكاً مباشراً .

ولسنا هنا بسبيل عرض ميتافيزيقا ديكارت وإنما يعيننا فحسب أن نوضح أثر الثورة الديكارتية في مبحث المعرفة ، إذ أن ديكارت هو أول من وضع أسس المذهب العقلي الحديث .

رأى ديكارت أهمية المنهج في الفلسفة لينقذها من القوضى التي انتهت إليها ، وهو لذلك يضع « قواعد لهداية العقل » لأنه يرى أنه « خير للإنسان أن يعدل عن التماس الحقيقة من أن يحاول ذلك من غير منهج » وهو يعنى بالمنهج « قواعد مؤكدة بسيطة إذا راعاها الانسان مراعاة دقيقة كان في مأمن من أن يحسب صواباً ما هو خطأ واستطاع دون أن يستنفد قواه في جهود ضائعة ، بل بالعكس مع ازدياد علمه زيادة مطردة ، أن يصل بذهنه إلى اليقين في جميع ما يستطيع معرفته » (١) .

وطرافة موقف ديكارت في هذا المجال تتجلى في اعتبار المنهج واحداً في الناس جميعاً ، « فالعقل السليم أعدل الأشياء قسمة بين الناس » . وهو لا يقف أمام جزئيات العلوم ، وإنما ينظر إليها جميعاً نظرة شاملة ، ينظر إلى العقل الذي يستنبط منه أحكامها . وهذا هو أساس المذهب العقلي .

والعلم هو العلم اليقيني ، واليقين يقوم على البداهة ، والبداهة تتمثل في جلاء ووضوح في العلوم الرياضية ، ومن ثم فديكارت يرى أن العلوم الرياضية تتفوق على غيرها من العلوم لبساطة موضوعاتها ، ولأنها مستنبطة من نشاط عقلي بحت ، يصطنع فيه العقل معاني وتصورات

(١) أنظر « قواعد لهداية العقل » القاعدة الرابعة . الترجمة تولا عن الدكتور عثمان أمين في كتابه « ديكارت » - الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٥٣ (ص ٥٩ — ٦٠) .

واضحة لم يقتبسها من التجربة ، ولذلك يشيد ديكارت بالمنهج الرياضى .
علينا اذن أن نأخذ بالمعاني الواضحة المتميزة، وهى التى تتضح لنا بدهائها
أتم اتضاح، فما سبيلنا إلى معرفة الأشياء ؟ يقول ديكارت إن « جميع
أفعال الذهن التى نستطيع بها أن نصل إلى معرفة الأشياء دون أن نخشى
الزلزال عبارة عن فعلين اثنين هما الحدس والاستنباط » .

والحدس *Intuition* عند ديكارت رؤية عقلية مباشرة ، نور
فطرى *lumière naturelle* ، أو غريزة عقلية ، يدرك بها الذهن حقائق
يتضح يقينها اتضاحاً يتبدد معه كل شك . من قبيل ذلك وجود الإنسان
بالضرورة لأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة أضلاع . والحدس
الديكارتي فعل عقلى خالص وفى ذلك يقول : « أقصد بالحدس ، لاشهادة
الحواس — وهى متغيرة — ولا الحكم الخداع حكم الخيال ، وإنما
أقصد به الفكرة المتينة التى تقوم فى ذهن خالص منتهى وتصدر عن نور
العقل وحده » (١) .

ويدرك الحدس كذلك ما يسميه ديكارت بالطبائع البسيطة
natures simples وهى التى تدرك إدراكاً مباشراً كالوحدة والوجود
والامتداد والشكل والزمان والمكان . وهذه الطبائع قد بلغت من
الوضوح والتميز مبلغاً يمنع الذهن من تقسيمها إلى أخرى أكثر
تميزاً منها .

أما الاستنباط *Déduction* فهو فعل ذهنى نستخلص بواسطته من

شئ لنا به معرفة يقينية نتأج تلزم عنها . والاستنباط الديكارتي يختلف عن القياس الأرسطى . فالقياس رابطة بين أفكار أما الاستنباط فعلاقة وثيقة بين حقائق . والحدود فى القياس تخضع لقواعد عامة تطبق عليها تطبيقاً آلياً ولكن المعرفة فى الاستنباط تتم بواسطة الحدس أو التور الفطرى . فالاستنباط إذن « حركة فكرية موصولة ، حركة فكر يرى الأشياء واحداً بعد الآخر رؤيه بديهية » ومن هنا يمكننا أن نقول إن الاستنباط الديكارتي ينتظم سلسلة من الحدوس .

خلاصة ما يعنينا أن المعرفة الواضحة عند ديكارت هى المعرفة العقلية وهى المعرفة التى تنتظم الأفكار الواضحة المتميزة . والأفكار الواضحة *idées claires* عند ديكارت تمثل طبائع بسيطة . وهى وإن كانت تمثل ماهيات فلا ينبغى لنا أن نأخذ الماهية بالمعنى المدرسى ، وإنما يرى ديكارت ألا انفصام بين الماهية والوجود . وإذا كان ثمة تمييز بينهما فهو تمييز تصطنعه فى دراستنا لبيان الفرق بين فكرة الشئ فى الذهن وفكرته خارج الذهن . الماهية عند ديكارت هى الوجود من حيث هو فكر . « وتتعقل موجود ما وتعقل طبيعة من الطبائع ليس معناه عنده استخلاص أمر يكون لها فيه مشاركة منطقية مع موجود أو طبيعة أخرى ، بل يفيد بالعكس التفكير والتأمل فى ذلك الموجود أو فى تلك الطبيعة بحس يفصل بينهما وبين سائر الموجودات أو الطبائع الأخرى ، وبهذا الحدس يحصل للعقل فكرة واضحة متميزة » (١) .

(١) انظر ص ٨٨ من «ديكارت» للأستاذ الدكتور عثمان أمين . الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٥٣ .

فموضوع العلم عند ديكارت ليس مجرد تصورات مجردة ، وإنما هو حقائق تتمثل في نفس الإنسان أفكاراً واضحة متميزة . والطبائع البسيطة التي يردد ديكارت التنويه بها ، ليست أجناساً أو أنواعاً على الطريقة المدرسية ، وإنما هي بسيطة كل البساطة لا تحتمل أدنى تحليل ، وإنما يقوم بينها روابط وثيقة وتدرجها بالنور الفطري أو الحدس .

فالعلم الديكارتي يختلف عن العلم المدرسي الذي لا يعدو أن يكون قوالباً لمعان وكليات ليس بينها إلا اتساق صوري خلو من الحقيقة الواقعة . ولم يشأ ديكارت أن ينظر في التصورات والمعاني نظراً مجرداً يتوصل فيه إلى ماهياتها ، وإنما استهدف التوصل إلى عناصر الأشياء التي هي من الموجودات بمثابة الخطوط والزوايا في الهندسة . هذه العناصر هي الماهيات التي لا انفصال لها عن الموجودات .

ولا يفوتنا أن ننوه بما ذهب إليه ديكارت من أن الله هو الذي يضمن كل معرفة وكل حقيقة وكل علم . فالضمان الإلهي *véracité Divine* هو الدعامة الأولى للمعرفة . فالله هو مبدأ المعرفة والوجود ومنبع اليقين . ووضوح الأفكار وتميزها هما المعيار العملي *Criterium Pratique* لليقين . والمعرفة كما رأينا تتم لنا بحدس لا يدع مجالاً للشك في وجود الفكر أو في وجود الله .

الربط بين

ويذهب ما البرانش إلى أن الحقيقة هي الله الحاضر فينا المفكر فينا والمعقول هو المطلق . والمعيار العملي للحقيقة هو وضوح الأفكار .

ويرى سبينوزا أن الفكرة الواضحة المتميزة تبسِّد كل شك ، ذلك لأن الشك ينجم عن فكرتين مختلفتين متعارضتين ، والفكرة الواضحة تحمل معها اليقين . بهذه النظرية يقطع سبينوزا الطريق على الشك . وتقوم حجته في ذلك على أساس أن الفكرة الواضحة متضمنة لليقين ، فالافتقار إلى اليقين يأتي من ثم من غيبة كل فكرة واضحة . ولما كانت طبيعة العقل البشري تقتضي أن تكون له أفكار واضحة ، فالشك لا ينعم بعقل سليم وهو بذلك أشبه بالعجاوات .

ويميز ليبنيز بين ضروب ثلاث من المعرفة . معرفة حدسية *Connaissance intuitive* ومعرفة برهانية *Connaissance démonstrative* ومعرفة حسية *Connaissance sensitive* . واليقين كذلك على أنواع فهناك يقين حدسي ، ويقين برهاني ، ويقين حسّي .

واليقين الحدسي *Certitude intuitive* يشمل نمطين من الحقائق ، حقائق فطرية *vérités primitives* أصلية قائمة في الواقع وحقائق فطرية قائمة في العقل .

واليقين البرهاني *Certitude démonstrative* يرجع إلى اليقين الحدسي ، والفعل الذي يتم لنا به استخلاص نتيجة من النتائج فعل بسيط من أفعال الحدس ، وهو يشمل ، دفعة واحدة ، المقدمات والنتيجة . واليقين البرهاني لا يعدو أن يكون يقينا حدسيا منطبقا على علاقة قائمة بين القضايا ، بدلا من انطباقه على حقيقة واحدة .

أما اليقين الحسي *Certitude sensitive* ، فليبنيز يرى أننا نعرف وجودنا بالحدس ووجود الله بالبرهان ، ووجود الأشياء الأخرى

بالإحساس . ولا نزاع في أن لدينا في الإحساس فكرة موضوع خارج
عنا . ولكن يلزم أن نعرف ما إذا كان من حقنا أن نعتقد بوجود هذا
الموضوع اعتماداً غريزياً نظرياً . يرى ليبنيز أن المعرفة الحسية تؤدي إلى
يقين شأنها في ذلك شأن المعرفة الخدسية والبرهانية ، ولكن لا بد لنا من
معيار سليم تميز به بين المعرفة الحسية الصحيحة وبين أوهام اليقظة وال المنام .
ولا يمكن أن نتخذ حيوية الإدراكات الحسية معياراً سليماً ، إذ قد تكون
إدراكاتنا للأوهام والأحلام أشد حيوية من إدراكنا للحقيقة
الأشياء الواقعية . إن أصدق معيار نلوذ به هو الارتباط بين الظواهر
La liaison des phénomènes ، ولما كان منبع هذا الارتباط في العقل
فالمعرفة الحسية الصحيحة تستمد يقينها من يقين المعرفة العقلية .